مجلة مدارات سياسية
EISSN: 2710 - 8341 ISSN: 2588 - 1825
المجلد (08) / العـدد: (01)، (2024)، ص 354 - 361

الفرانكفونية حيز للتعاون أم أداة نيوكولونيالية؟

Francophony: an area for cooperation or a neo-colonialism tool?

محمد الهادي كشت
مركز البحوث والدراسات في حوار الحضارات والأديان المقارنة، سوسة، (تونس)، kocht.med@gmail.com

تاريخ الإستلام: 2023/08/01 تاريخ قبول النشر: 2023/10/21 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص:

لا شك أن الرأي العام العربي والإفريقي والمتوسطي يشقه الانقسام حول مسألة "الفرانكفونية"، بين فريق يذهب إلى أنها فعلا فضاء للحوار والتعاون الثقافي والاقتصادي بين الشعوب والدول التي تعتمد الفرنسية لغة رسمية أولى أو ثانية، وبين فريق مقبل يرى أنها ليست سوى أداة في يد قوة كولونيالية قديمة تروم استدامة السيطرة بوسائل غير تلك التي اعتمدتها إبان الحقبة الكولونيالية المباشرة. ولئن انحاز كاتب الورقة إلى الشق الثاني فإن ذلك لم يمنعه من التسلح بالموضوعية العلمية التي ستدفعه إلى اجتراح طريق ثالث يبتعد به عن الفرنكوفوبيا *francophobie* فيما هو يتخذ مسافة من الفرانكفونية *francophonie*.

الكلمات مفتاحية: هيمنة؛ فرانكفونية؛ تعاون؛ فرانكوفوبيا؛ نيوكولونيالية.

Abstract:

There is no doubt that the Arab, African, and Mediterranean public opinion has widely differed on the matter of Francophony: One narrative thinks of it as an area of cultural and economic dialogue and cooperation between the countries in which French is the first or the second official language. The other perception is to consider it as a tool of an ex-colonial power to keep its hegemony on these countries without referring to the old colonial ways. The fact that the author is more sided with the second narrative didn't make him lose the scientific objectivity that made him go for a third option: Staying away from Francophobia, and keeping his distance from Francophony, at the same time

Keywords: hegemony; francophony; cooperation; francophoby; neo-colonialism

1. مقدمة:

ما ينفك الجدل يحتد حول المنظمة الدولية للفرانكفونية، خاصة عندما يقترن بانعقاد مؤتمرها، وآخرها مؤتمر "جربة" بتونس نوفمبر 2022. ولعل أهم ما يمكن تثير تلك المؤتمرات من قضايا على هامشها هو التساؤل المشروع حول المقصد الحقيقي من التشبث بالفرانكفونية كرافعة للسياسات اللغوية الفرنسية من جهة، وكواجهة سياسية تضم ما يزيد عن الخمسين دولة بين عضو ومراقب، سيما وأن اللغة الفرنسية تشهد تراجعا لافتا في سياق الهيمنة المطلقة للغة الإنجليزية في كل مجالات التداول.

ولعل الأمر يزيد إلحاحا وخطورة عندما يتعلق بدول الجنوب عموما، والدول العربية والإفريقية على وجه الخصوص. فاللغات المحلية في تلك الدول تعرف أزمات وجودية عميقة تهدد كينونتها.

ضمن هذا المربع البحثي، تحاول هذه الورقة الولوج إلى ما وراء الشعارات التي تصدّرها المنظمة الدولية للفرانكفونية، والتي تتعلق أساسا بالتعاون والتكامل والتضامن بين الدول الأعضاء، للوصول إلى أنساق الهيمنة والإخضاع الذي تروم فرضه الدولة الفرنسية على بقية الأعضاء.

2. في تحديد المفاهيم:

تجمع المعاجم الفرنسية على أن لفظة الفرانكفونية francophonie تعني التحدث باللغة الفرنسية، وتترجم إلى الإنجليزية French-speaking ويعرفها قاموس الأكاديمية الفرنسية " Le fait de parler français [1]. لكن التحدث بالفرنسية قد يطرح مجموعة من الاستفهامات تبتعد به عن مناط الضبط والتحديد، أوّلها حول كيفية التحدث المقصود، هل هو كليّ أم جزئي؟، هل هو يوميّ أو مناسباتي؟، هل هو دائم أم مؤقّت؟ كما أن ثمة مستويات أخرى للتحدث بالفرنسية من جهة كونا اللغة الأم langue maternelle، أو اللغة الثانية deuxième langue، أو لغة أجنبية langue étrangère.

وبالعودة إلى قاموس الأكاديمية الفرنسية نجده يعرف الفرنكفونية أيضا بكونها:

Avec une majuscule. Nom par lequel on désigne couramment, par abréviation, la Conférence des pays ayant le français en partage

وهو ما يحيل على منظمة الدول الناطقة بالفرنسية، ولكن عند هذه المفصل لابد من التوقف عند ماهية اللغة ذاتها، فهل هي مجرد أداة للتواصل؟ أم هي غير ذلك؟

يعرّف "ابن الجنّي" اللغة بما هي "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[2]، فاللغة إذا هي أداة مخصوصة لأقوام يعبّرون بها عن حاجاتهم المخصوصة لكن. "ابن حزم "يتجاوز دائرة التعبير إلى ما هو معرفي، ومن هنا تتنزل مقولته: **"**إنه لا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلا بتوسط اللفظ**"**، فتنقلب اللغة بذلك إلى أداة للتفكير، وطريقة للمعرفة وأسلوب للحضور في العالم والكون.

وفي هذا السياق أنجزت أستاذة علم النفس في جامعة "ستانفورد" "ليرا برودوتسكي" LeraBoroditsky بحثا نشرته في "وول ستريت جورنال" بدأته بالسؤال التالي:

Does the language you speak affect how you think about the world?

هل للغة التي نتحدث بها تأثيرا على تمثلاتك عن العالم؟

واستنادا إلى معاينات وأبحاث ميدانية خلصت "برودوتسكي" إلى أن اللغة ليست فقط جهازا نعبر به عن أفكارنا، وإنما هي أيضا تحدد تلك الأفكار وتشكلها. وهو ما يناقض ما يذهب إليه "تشومسكي" الذي يرى أن كل اللغات الإنسانية متشابهة وليس بينها اختلافا كبيرا.

وانطلاقا من هذا التعريف للغة بما هي أداة للحضور في الكون تتخذ قضية الفرنكفونية خصوصا وإشكالية الازدواجية اللغوية أو تغيير اللغات عموما أبعادا أخرى.

3 . السياسات اللغوية الفرنسية في المرحلة الكولونيالية:

قد لا نجانب الصواب إن ذهبنا إلى أن الفرنكوفونية كجهاز تعتبر الوريث الشرعي لحقبة الكولونيالية في نسختها الفرنسية، فمن المعلوم أن فرنسا الكولونيالية كانت قد اعتمدت سياسات لغوية مخصوصة كأداة في مشروعها الكولونيالي، وسعت جاهدة إلى فرض اللغة الفرنسية على السكان الأصليين للمستعمرات، وكان ذلك باعتماد إجراءات تهمّش اللغات واللهجات المحلية، وتفسح المجال أمام هيمنة اللغة الفرنسية ترغيبا وترهيبا، ومن ذلك اعتبار الفرنسية اللغة الرسمية للمستعمرات، و التدريس باللغة الفرنسية، مع محاصرة اللغة المحلية، ودفع السكان إلى التخلي عنها تدريجيا . وقد أشار الشيخ محمد الفاضل بن عاشور إلى ذلك في كتابه "الحركة الفكرية والأدبية في تونس" متحدثا عن المدرسة الصادقية حين قال: ‘‘وإذا كان هذا المنهج قد أبقى للمدرسة الصادقية مادة تعليم عربي ضئيل، فإنه قد قطع مادة الثقافة العربية بتاتا، إذ جعل اللغة الفرنسية أداة المعرفة العامة وأبقى اللغة العربية مادة تعليم لا تقصد إلا لذاتها على خلل فادح في طرائق تعليمها"[3].

ومما ورد في كتاب "الإسلام في غرب إفريقيا" (L’islam en Afrique de l’ouest) الصادر عام 1899على لسان مؤلفه "ألفريد لوشاتلييه" Alfred Le Chatelier :"فالإسلام بلسانه العربي سيبقى حاجزا قاتلا أمام التقدم الأوروبي، ولن يتوقف الأمر إلا من خلال تغلل اللغات التي تتلاءم مع رؤيتنا للتطور و الإنسانية.. العربية لا تنتشر بالنوايا، وإنما لأنها اللغة الرسمية ولغة التجارة، يجب تركها في الزوايا والمساجد لإرضاء المصلين"[4]

ولقد تزعم "لوي ماشوال" (Louis Machuel) ما سمي بمشروع الإصلاح في تونس انطلاقا من سنة 1883 عندما عينه المقيم العام مديرا لإدارة التعليم العمومي بصلاحيات واسعة. ولئن كان الهدف المعلن هو تحديث مؤسسات التربية والتعليم وتعصيرها فإن المقصد الحقيقي والفعلي كان محاولة أضعاف الشعور الرافض لفرنسا وللاستعمار، ومحاولة اختراق النفس المقاوم عبر احتواء مرتادي المؤسسات التعليمية وأهاليهم، خاصة وأن ما يقدم من

تعليم عصري يؤهل للفوز بالوظائف في الإدارة، وأداته في ذلك محاولة فرض اللغة الفرنسية كلغة أمر واقع وكانت بداية "ماشويل" بتأسيس نواتات لمدارس ابتدائية فرنسية عربية franco arabe في عدة مدن من المستعمرة، وكان انخراط أبناء التونسي متفاوتا حسب الجهات وحسب الفئات الاجتماعية. وقد حرصت بعض العائلات على الاستفادة من هذا التعليم رغبة في الفوز بخطط في الإدارة الاستعمارية. وبعد أن كان "ماشوال" قد انطلق في مشروعه من المدارس الفرنكو عربية حول اهتمامه إلى مؤسسة الزيتونة مستفيدا من تجربة فرنسا بالجزائر وذلك بعدم تكرآر نفس الأخطاء ومن هنا فقد كانت الخطة ترتكز على التدرج في بسط النفوذ والتوغل إلى مؤسسة الزيتونة من خلال تمتين العلاقات مع الأعيان من القضاة والمفتين والأمة الكبار خاصة في المناسبات الدينية والوطنية وصولا إلى تكوين لجنة الدراسات العربية وهي اللجنة التي أوكل إليها تقويم التعليم العربي وتطويره في تونس بما في ذلك التعليم الزيتوني. ولقد باء مشروع ماشوال بالفشل ومن ثمة رحل رفقة المقيم العام وإعادة تقييم الشأن التربوي برمته ومن ذلك التراجع عن المدارس الفرنكو عربية.

ولئن فشل مشروع "ماشوال" ومن ورائه مخططات الاستعمار فقد تهيأت الساحة إلى بروز تيار إصلاحي وطني يرث الإرهاصات الأولى التي بدأها المصلحون التونسيون الأوائل مثل خير الدين ويتفاعل مع ما كان يختمر في المشرق من حراك إصلاحي على يد مصلحين مثل الأفغاني ومحمد عبده.

ويصف "عبد الإله بلقزيز" ما سبق من سياسات لغوية فرنسية في البلدان المستعمرة بالجراحة الثقافية الكولونيالية، إذ يقول :"ففرنسا ما كانت تكتفي من مستعمراتها بما يطلبه منها سائر ملل الاستعمار ونحله: نهب الثروة، وجلب العمالة الرخيصة، وتأمين السوق للسلع الرأسمالية، وتوفير مواطئ قدم للجيوش البرية والبحرية، وقاعدة بشرية تستخدم لأداء السخرة العسكرية في جيوش المحتل ..كانت تطلب أكثر من ذلك بكثير :إنجاز جراحة ثقافية ولغوية تستتبع المستعمَر للمستعمِر، وتأتي بمعاول الهدم على استقلال شخصيته و كيانه، وتدفعه إلى اقتداء الغالب، والإذناب له، والتماهي معه، وفقدان القدرة على وعيه لذاته إلا في علاقته الإنجذابية به"[5].

4. الفرنكفونية كممارسة نيوكولونيالية :

"هل يستيطيع التابع أن يتكلم؟"، ذلك عنوان كتاب الهندية "غياثري سبيفاك" وهو سؤال جوهري بما أنه يحيل على مسألة التمثيل، فالتابع غير قادر على التعبير لأنه غير قادر على إنتاج خطابه الخاص الذي يمثله، فثمة دائما من ينتزع منه حق تمثيل نفسه. ولعله من الجدير في ذات السياق إضافة سؤال إلى عنوان كتاب سبيفاك، وهو بأي لسان سيتكلم التابع إن هو استطاع؟، هل بلسانه الأصلي أم بلسان من أخضعه وجعله تابعا؟ وبالعودة إلى مفهوم اللغة في بداية البحث بما هو أسلوب للحضور في العالم ومنوال للتفكير يزداد الأمر صعوبة وتعقيدا.

ولعل "الفرنكفونية" في علاقة بالمستعمرات الفرنسية السابقة، لا يمكن أن تحيد عن كونها جهازا لاستدامة تمثيل التابع بأساليب جديدة غير الآلة العسكرية. يقول "جون بول سارتر" في كتابه "الاستعمار الجديد" :"وفي هذه

المرة أصبحت الرأسمالية نفسها هي الاستعمارية، وقد جعل "جول فيري" jules Ferry من نفسه لسان حال هذا النوع الجديد من الاستعمار فقال: إن لفرنسا التي استفرغت كثيرا من رؤوس الأموال وأصدرتها الى الخارج بكميات كبيرة مصلحة في أن تنظر الى المسألة الاستعمارية من هذه الزاوية، إنها قضية الأسواق بالنسبة إلى بلد كبلادنا".[6]

في هذا السياق يفهم تصريح الرئيس الفرنسي الأسبق فرنسوا ميتران سنة 1957 قبل تولي الرئاسة حين قال: "دون إفريقيا، فرنسا لن تملك أي تاريخ في القرن الواحد والعشرين". وفي مارس سنة 2008، صرّح جاك شيراك هو أيضا: "دون إفريقيا، فرنسا ستنزلق إلى مرتبة دول العالم الثالث". وانطلاقا من هذين التصريحين تتوضّح الاستراتيجيات الفرنسية المتعاقبة إزاء مستعمراتها السابقة عموما وتجاه إفريقيا على وجه الخصوص، فالثابت أن فرنسا لم تكتف بالنفوذ الاقتصادي، وإنما تجاوزته الى التدخل الثقافي والسياسي المباشر. ولقد كان السياسي المخضرم "جاك فوكر" Jacques Foccart أبرز مثال على تفيذ مخططات الإدارة الفرنسية ما بعد المرحلة الكولونيالية. إذ اشتهر بنسجه شبكة علاقات ممتدة في إفريقيا سميت Franceafrique، مكنته من تفيذ مهمات خاصة، وأجندات غاية في الخطورة وصلت حد الاغتيالات والانقلابات في سبيل دعم حكام افريقيا الخدومين للمصالح الفرنسية، واستبعاد كل من تشبّث منهم باستقلالية القرار.

وانطلاقا من كل ما سبق، لا يمكن للفرانكفونية إلا أن تكون أداة فعالة تتجاوز ما هو لغوي إلى ما هو سياسي واقتصادي، بل تستحيل اللغة هنا إلى قوة ناعمة في سبيل المحافظة على ذات المصالح الاقتصادية التي كانت تغنمها فرنسا بالحضور العسكري المباشر إبان الحقبة الكولونيالية. ولا غرابة والحال تلك أن كانت الإرهاصات الأولى لميلاد منظمة الدول الفرانكفونية قد انطلقت بانعقاد المؤتمر الأول لوزراء التربية والتعليم في فرنسا وإفريقيا سنة 1960، حينها بدأ مفهوم الفرانكفونية في التبلور نظريا قبل أن تتشكل المؤسسات التعليمية والإعلامية والسياسية المؤثثة له.

5. بين الانفتاح والاستلاب

ينسب للمؤلف الجزائري "كاتب ياسين" مقولة ''الفرنسية غنيمة حرب''، ولا شك أن ما كان يقصده "كاتب ياسين" هو أن الفرنسية كلغة مثلت في حينها فرصة للسكان الأصليين للمستعمرات للانفتاح على ثقافة العالم وحضارته، تماما مثلما كانت حملة "نابوليون" على مصر سنة 1798 قد شكلت صدمة حضارية ولدت فكرا نهضويا حاول الإجابة على السؤال الذي طرحه "شكيب أرسلان" لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟".

فنحن هنا إذا أمام إرادة حرة، واختيار واع يصدر عن طموح مشروع، ولا يصدر عن حالة استلاب أو خضوع. ويصف الباحث اللبناني "حسين قبيسي" تجربته مع الفرنسية في مقال بعنوان "تأملات جديدة ومغايرة في الفرنكوفونية" إذ يقول: "والوصول إلى الفرنكوفونية لا يعني الرّسوّ على شاطئ "المنظمة الدولية للفرنكوفونية"، بل يعني خدمة الثقافة العربية بوسيلة لغوية غير عربية. فأنا أعيش فرنكوفيليّتي من دون عقدتيْ الدونية والفوقية، أي بلا تفاخر ولا تثريب، وذلك لأنني حينما تعلمت الفرنسية لم يكن ذلك من اختياري ولا من صنع عقلي وإرادتي وأهوائي...

وإنما تطوَّر تعلُّمي لها إلى نوع من المحبة والاستئناس، ربما لسبب نفعيّ صرف، وهو أنها مكَّنتني من فتح نافذة (واسعة) على العالم بكل ما فيه، لم يكن للغتي العربية أن تطلّ بي عليه"[7].

هذه النزعة الحرة ذاتها كانت قد أنتجت أعلاما للفكر و الأدب لا يرتقي الشك إلى وطنيتهم، فالشيخ "عبد العزيز الثعالبي طوّع قلمه الفرنسي لمقاومة الغطرسة الفرنسية وكانت النتيجة من قبيل L'Esprit Libéral du Coran "روح التحرر في القرآن"، وla Tunisie martyre "تونس الشهيدة"، و ذلك كان شأن "فرانس فانون" خاصة فيLes Damnés de la Terre "معذبو الأرض" و Peau noire, masques blancs "بشرة سوداء أقنعة بيضاء،" أمّا "مالك بن نبي" فقد ترك تراثا فكريا كاملا هدفه الأساسي مقاومة الاستعمار و القابلية للاستعمار.

لكن هنا علينا أن نتوقف لطرح السؤال الجوهري: هل أن اللغة الفرنسية اليوم هي النافذة الحقيقية على العلوم والمعارف؟، وبصياغة أخرى إذا كان ابن خلدون قد ذهب إلى "أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزّيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده" جاز لنا أن نتساءل من يكون هذا الغالب اليوم؟ واقع الحال يشير إلى أن اللغة الفرنسية تراجعت إلى مراتب متأخرة في العالم بل هي في تراجع في فرنسا ذاتها، ولا أدلّ عل ذلك من انتشار لغة خاصة بين الشباب الفرنسي دعيت franglaisوهو ما حدا بمائة مثقف من العالم من بينهم "الطاهر بن جلون" لإمضاء عريضة إلى الرئيس الفرنسي ماكرون سنة 2019، اتخذوا لها عنوانا:" دفاعا عن الفرنسية ضد الاستعمار الأنجلو أمريكي وجاء في مطلعها:" إن اللغة الفرنسية في وضع سيء. وهي تختنق بفعل اللغة الأنجلو-أميركية، ويشهد استخدامها تراجعا بسبب هذه اللغة التي باتت مألوفة أكثر". ونفس المعاني دونتها رئيسة تحرير مجلة " علوم الكيباك" " Québec science"في افتتاحية العدد الصادر يوم13 ماي 2021 بعنوان " أهمية الفرنسية في العلوم"، وقد افتتحت مقالها ب"كيف يمكن المحافظة على ما تبقى من اللغة الفرنسية في عالم الأبحاث العلمية؟" وقد أوردت مجموعة من المعطيات الإحصائية التي تؤشر إلى تراجع لافت للغة "موليار" في كندا عموما وفي مقاطعة كيبك الفرنسية على وجه الخصوص، ومن ذلك أن قرابة 100بالمائة من الأبحاث في العلوم الطبية والطبيعية في كندا كتبت سنة 2019 بالإنجليزية، و97 بالمائة في العلوم الاجتماعية، و90 بالمائة فيما يتعلق بالفنون و الآداب. أما في مقاطعة "الكيبك" فأن نسبة الأبحاث الاجتماعية المكتوبة بالإنجليزية كانت 70 بالمائة. ولعل ما سبق هو ما دفع رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق "ادوار فيليب" يصرح سنة 2018: "الإنجليزية الآن هي اللغة المهيمنة للتفاهم بين الشعوب. عليك أن تتحدث ب الإنجليزية إذا أردت أن تتصرف وتتعامل في ظل العولمة" قبل أن يغرد في "تويتر" سنة 2019 بأن إتقان الانكليزية يعني حسن التحكم في المستقبل ولذلك فقد أقر تمويل الدولة لاختبارات تقييم الإنجليزية للتلاميذ والطلبة قبل التخرج

و لعل ما سبق هو ما دفع العديد في المستعمرات الفرنسية السابقة إلى الدعوة إلى استبدال الفرنسية بالإنجليزية في المواد الدراسية، (المغرب و الجزائر مثلا و رواندا التي تحولت كليا إلى الإنجليزية) وهو أمر مبرر براغماتيا، فاللغة الإنجليزية اليوم هي لغة العلم والمعرفة والتكنولوجيا، كما أنها اللغة المهيمنة على الأبحاث العلمية، فضلا عن كونها لغة التخاطب الطاغية في الفضاءات الافتراضية المنفتحة على المستقبل ومن هنا فإن الذين يعتبرون استعمال اللغات الأجنبية ضربا من ضروب التخلف و الإلحاق و الاستلاب، يذهبون إلى أن التمسك بالفرنسية مقابل الإنجليزية من قبيل التخلف المركب، أو التخلف ضمن التخلف. (الغريب من كان في غربته غريب "التوحيدي".. المتخلف من كان في تخلفه متخلف).

6. الخاتمة:

ما المطروح ختاما؟ هل نحن أمام معادلة تحتّم الاختيار بين الخضوع للإبادة الثقافية كما حددها "لورنس دافيدسون" في كتابه الذي يحمل نفس العنوان بما هي "الاستهداف المقصود والمدمّر لثقافات المجموعات التي لا تنتمي إلينا .. من خلال عملية الاحتلال أو السيطرة"[8]، وبين الرفض المطبق للغات الأجنبية ومن ضمنها الفرنسية، وتطبيق سياسات لغوية حمائية تنطوي على اللغة العربية، وتبني دونها جدرانا عالية.؟ فهل نحن أمام مبدأ الخيار الثالث المرفوع؟

نحن نعتبر أن ثمة خيار وسطا بين الخيارين، بين الفرنكفونية كإيديولوجيا للهيمنة، أو الفرنكوفيلية كهيام أعمى بكل ما هو فرنسي، وبين الفرنكوفوبيا بما هي معاداة مطبقة لفرنسا وللفرنسيين وللغتهم، نحن مع خيار الانفتاح المرشّد و الأصيل على كل ثقافات العالم و حضاراته ولغاته، بوصلتنا في ذلك المصلحة والفائدة، وبالتالي فمن باب أولى وأحرى أن تمتد جسورنا أوّلا إلى اللغات السائدة والمؤثرة والفاعلة والمنتجة قبل غيرها.ولن تفلح سياسة الانغلاق، ذلك أن عالم اليوم أصبح بمثابة القرية الكونية، والتفاعل صار مفتوحا بين كل ثقافات العالم ولغاتهم، فوسائل التواصل الحديثة فرضت واقعا جديدا لا مناص من التسليم بسطوته .

إن حماية اللغة وتطويرها لا يمكن أن يتم بالقفز على سنن التاريخ، بل قد لا نجازف إن نحن قلنا أن اللغة ظاهرة طبيعة، يجري عليها ما يجري من قوانين الطبيعة، ومن ذلك قانون التدافع و التلاقح، بل كذلك "الانتخاب الطبيعي". فمن المعلوم أن آلاف اللغات المحلية قد اندثرت تماما، وأخرى في طريقها إلى الاندثار، وهو ما دفع اليونسكو إلى تبني ما سمي بالحقوق اللغوية للأقليات، وسنّت لذلك يوما عالميا وسمته بـ "يوم اللغة الأم". ولعل من سنن التاريخ أن تكون اللغة المسيطرة هي بالضرورة لغة المنتصر والرائد على المستوى الحضاري، وهي لغة المنتج للخيرات والمعاني ولا غرابة والحال تلك أن كان الشعب الأمريكي قد تلقف شعار الثورة التونسية يوم أن أنتجت المعاني، ورددده بلسان عربي في "وول ستريت" الشعب يريد إسقاط النظام".

ومن الأمثلة الواضحة على سنة التدافع اللغوي تساوقا مع التدافع الحضاري أن كلمة "الغَول" وهو ما يغتال العقل أي الخمر ترجمت عن العرب حين مجدهم "Alcool"، ثم عادت بضاعتهم إليهم حين أفولهم "الكحول". والأمر

ذاته ينطبق على نماذج عديدة مثل "المغازة"، التي ترجمت "magasin"والتي هي بدورها ترجمت من اللفظة العربية "مخزن". ويورد الدكتور "عبد السلام المسدي" في كتابه "التخطيط اللغوي والأمن اللغوي" مقولة لابن حزم من كتاب "الإحكام في أصول الأحكام" جاء فيها: "إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم فإنما يقيد لغةَ الأمة وعلومَها وأخبارَها قوةُ دولتها ونشاط أهلها وفراغهم. وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوّهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل، وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر؛ وربما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم، ونسيان أخبارهم وأنسابهم، وبيود علومهم "[9].. في نهاية التحليل إذا من أراد أن ينتصر للغته ليس أمامه سوى أن يغير اتجاهه نحو الخلق والإبداع والفعل الحضاري وبلغة "موليار":

Puisqu'on ne peut pas changer la direction du vent, il faut apprendre à orienter les voiles, James Dean.

7. الهوامش:

1 – "francophonie", Dictionnaire de l'Académie française, 9e édition, (15/05/2023), https://www.dictionnaire-academie.fr/article/A9F1557

2 – ابن الجني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، ج1، بيروت، 1952، ص 33.

3 – بن عاشور فاضل،"الحركة الفكرية والأدبية في تونس" بيت الحكمة تونس 2009، ص 53-54.

4 - Alfred Le Chatelier L'Islam dans l'Afrique occidentale, Paris, G. Steinheil, 1899, p 376.

5 – بلقزيز عبد الإله الفركفونية: إيديولوجيا سياسات تحد ثقافي لغوي حلقة حوارية أنجزها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2011.

6 – سارتر جون بول: الاستعمار الجديد، ترجمة عائدة وسهيل إدريس، دار الآداب، بيروت، 1966، ص26.

7 – قبسي حسين: تأملات جديدة ومغايرة في الفرنكوفونية دورية أفق الالكترونية مؤسسة الفكر العربي بيروت لبنان.

8 – دافيدسونلورنس:"الإبادة الثقافية"، ترجمة منار ابراهيم الشهابني، العبيكان للتعليم، الرياض، 2017، ص9.

9– المسدي عبد السلام: "التخطيط اللغوي و الأمن اللغوي «،مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2015، ص21.